أسباب مجهولة للبكاء

تهاني كفاية

لماذا تبكي كثيراً هذه الطفلة؟ هذا السؤال الذي كان يتردد كثيراً على مسامع والدتي ممن حولها بعدما قامت بإنجابي، متسائلين عن سبب بكائي الشديد، الذي لم يعرف له سبب آنذاك. أما السؤال الثاني، فكان: ماذا سنطلق عليها اسماً؟ السؤال الذي اعتاد أبي مشاركة أخوتي به في كل مرة يحضر فرد جديد إلى العائلة، وبخاصة أنني كنت الطفلة الصغرى في عائلة تكونت من خمسة آخرين. فوسط الضحكات المتعالية فرحاً للقادمة الجديدة التي ستشاركهم البيت، والاقتراحات الكثيرة، تم الإجماع أخيراً على اسم «تهاني».

مرت السنوات، وكلما كبرت تلك الطفلة أصبحت أكثر هدوءاً، هذا ما تقوله أمي دوماً لي، حتى في أحد الأيام وبينما كنت ألعب مع أبناء خالتي على سطح منزل لم تكتمل جدرانه بعد، لأنه كان ما زال قيد البناء، فجأة أسقط من الأعلى وتسمع دوي السقطة الجارة التي تسكن بجوارنا فتهرع صارخة لأمي لترى ما حل بي، وإذا بي ملقاة على الأرض دون أي حركة، تم نقلي إلى المشفى، حيث أعلن الأطباء خطورة الحالة التي كنت أمر بها، لكن شاء القدر أن يُكتب لي عمر جديد بعد مكوثي فترة من الوقت في المشفى.

كنت أحلم دوماً أن أكون طبيبة أسنان، لكن مع تقدمي بالعمر بدأت أحب مهنة التعليم كثيراً، وأصبحت أحلم بأن أكون معلمة أطفال؛ كتلك المعلمة التي علمتني واستوطنت ذاكرتي بأسلوبها المختلف وبحبها لي، وكذلك حبي لأيام الطفولة والدراسة التي تركت في ذاكرتي أجمل المواقف وأحلى الأيام. فما زلت أذكر ذلك المكان في إحدى زوايا ساحة المدرسة، حيث كنا أنا وزميلاتي نتسابق للوصول إليه بعد أن يقرع الجرس، لنجلس هناك قبل غيرنا، فنتناول فطورنا ونتبادل الأحاديث، ونملأ المكان ضحكاً، حتى تمر وقت الاستراحة بلمح البصر، متمنين لو أنها تدوم طويلاً، وتتسع لما لدينا من أخبار وضحكات نود أن نتشاركها سوياً.

أنهيت مرحلة الدراسة الثانوية العامة التي تلقيت أثناءها الكثير من الدعم من أهلي، فحققت النجاح الذي تمنيت، وتقدمت بعدها لمتابعة دراستي في كلية مجتمع المرأة، حيث تم قبولي في تخصص تصميم جرافيكي، لكنني لم أكن سعيدة بهذا التخصص، فطلبت مباشرة أن التحق بتخصص رياض الأطفال الذي أمضيت سنتين فيه، حتى جاءت مرحلة التدريب العملي التي أحببتها كثيراً، لأنها جعلتني أتعامل مباشرة مع الأطفال، وأحاول أن أجرب معهم ما تعلمته في هذا التخصص، إلى أن جاءت فرصة تعييني بعد تخرجي في روضة في منطقتي، حيث بدأت حكايتي التي لن تنتهي مهما طال الحديث عنها.

1 أيلول 2012 كان اليوم الأول لي كمعلمة أطفال، اليوم الأول الذي امتلأ بالبكاء؛ بكاء الأطفال المسموع، وبكائي أنا المكبوت، لأنني أردت أن أشعر أطفالي بأنني قوية، وأستطيع أن أكون قوية لأجلهم، وأمدهم بإحساس بالأمان والطمأنينة. فلا أنسى ذلك اليوم، ووسط البكاء الكثير، ومحاولاتي المتكررة لتهدئة الأطفال الذين تجمعوا من حولي، وإذا بأحد الأطفال يفر محاولاً الهرب من الروضة، تركت كل شيء وتبعته جرياً حتى أمسكت به وأعدته إلى الداخل، حينها أدركت حجم المسؤولية الكبيرة التي تقع على كاهلي، والدور الكبير الذي سأقوم بتأديته مع أطفال مختلفي القدرات والاحتياجات والمشاعر. فلكل طفل عالمه الخاص الذي شكله حتى وصل إلى هنا، فهناك طفل عدواني، وآخر عنيد، الطفل الذي يسهل التعامل معه، وآخر لديه حركة زائدة، طفل جاء من أسرة مفككة، ولا يجد فيها من يسمعه، وطفل مدلل لدرجة تجعله اتكالياً، بشكل كامل، والكثير الكثير... فكل يوم هناك حكاية جديدة في الروضة عليَّ أن أتعامل معها، وكل يوم أعود إلى بيتي وفي جعبتي الكثير الذي يجعلني لا أكف عن التفكير المستمر واللانهائي.

فاليوم أحدهم تعرض لإصابة في الروضة، وعليَّ أن أبلغ الأهل وإقناعهم بأنه بخير، وبأن إصابته لم تنتج عن أي إهمال مني، وآخر أكتشف أنه يتيم الأم منذ لحظة ولادته، ويعيش مع زوجة أبيه، ويفتقد إلى الكثير من الحنان والاهتمام، ما انعكس سلباً على علاقته بالأطفال زملائه، وعلى تركيزه داخل غرفة الصف، وبدأت ألاحظ الكثير من الآثار على جسده، فأتتبع قصته حتى أكتشف أن زوجة أبيه لا تسمح له بالحركة داخل البيت، فيقضي كل وقته جالساً على كرسي، لا يلعب كبقية أطفال جيله، ولا يجد من يسمعه، فأبوه يقضي ساعات طويلة خارج البيت، وإخوته الآخرون يعيشون في مدرسة داخلية، فهو طفل فقط بالاسم، مهمل، ضحية، وحيد، يحتاج فقط إلى أبسط الحقوق ليعيش كطفل، يحتاج إلى القليل مني ليستعيد داخل الصف بعضاً من طفولته التي لم يعشها، هنا أدركت حجم المسؤولية الكبيرة التي أحملها وبت أؤمن بها.

كل هذا جعلني أزداد تعلقاً بمهنتي التي شعرت بأهميتها، وعملت دوماً على البحث عن معرفة جديدة تساعدني

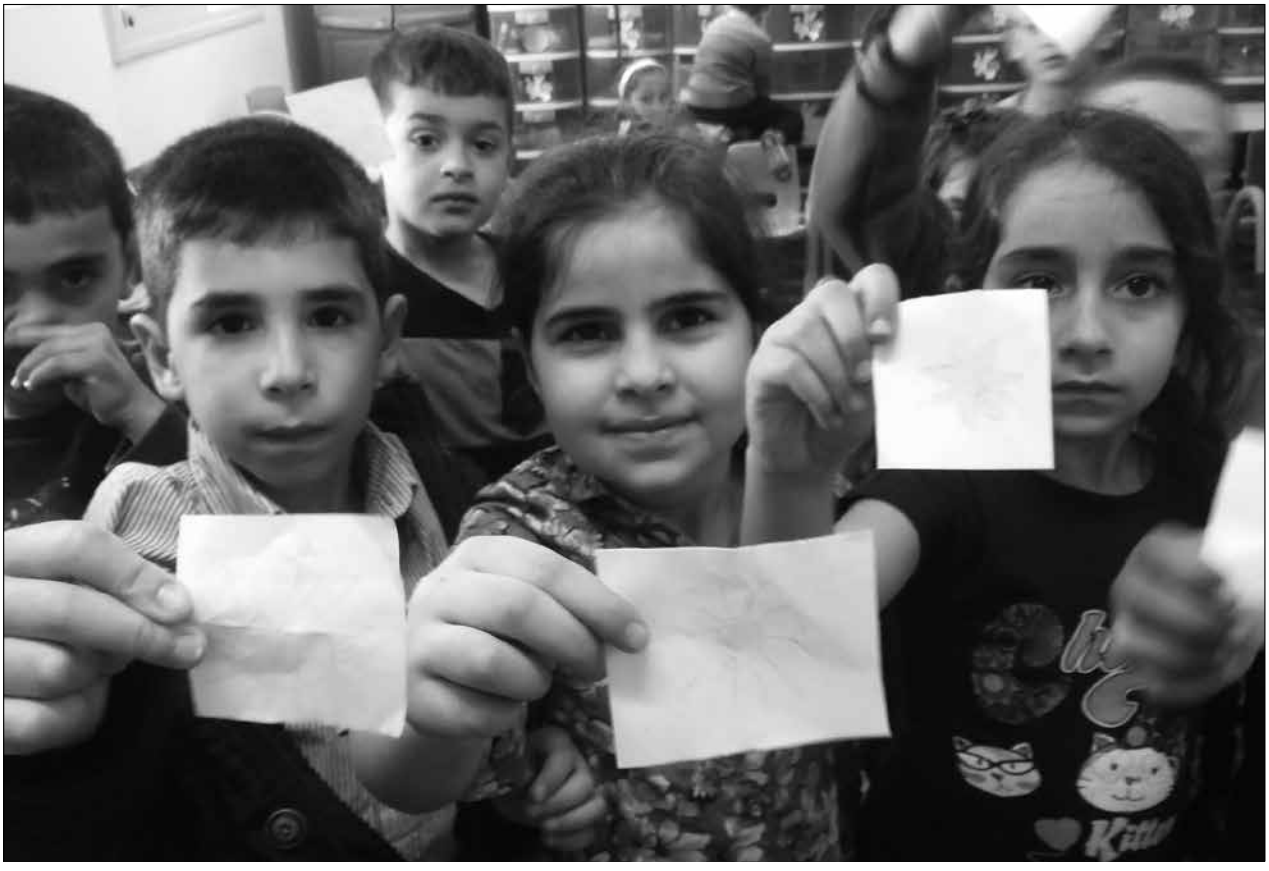

أطفال روضة دار المعرفة في كفر عقب خلال نشاط مع مربيتهم تهاني كفاية.

أكثر على فهم دوري، وعلى فهم أطفالي، وكيفية مساعدتهم على تخطي ما أعاق نموهم كأطفال عاديين، حتى جاء اقتراح من إدارة الروضة بترشيحي للالتحاق بدورة خاصة بمربيات الأطفال.

انتسبت إلى الدورة التي كانت، في البداية، صعبة، وتحتاج مني إلى بذل جهد كبير في تغيير نمط تعليمي لأطفالي، إلا أنه، رويداً رويداً، بدأت أؤمن بأنها فرصة ذهبية أتيحت لي لأتعلم شيئاً جديداً، فبت أرى الأشياء بشكل أعمق من السابق، ولم أعد أتقبلها كما هي، ولا أحكم عليها من منظور واحد، عملت مع أطفالي بمنهجية تعليم جديدة، جعلتني أرى في عيونهم صوراً لم أرها في السابق، وشغفاً نحو التعلم لم أشهده سابقاً.

وتستمر الدورة، وتستمر علاقتي بمؤسسة عبد المحسن القطان، حيث تتحول الدورة من دورة في التعليم ومنهجياته، إلى دائرة حياة كاملة؛ دائرة وجدت فيها الخبرة والتجربة، تخطيطاً وتجديداً يصل حد المغامرة، وزميلات نتشارك المهنة والصداقة، لقد كبرت الدورة وغيرت الكثير في حياتي، وزادت لي في مجال مهنتي كل شيء: الخبرة، المنهجية، الأساليب ... ولكن الأهم هو الرغبة الدائمة في التعلم المستمر.

ففي برنامج الطفولة المبكرة في مؤسسة عبد المحسن القطان، تعلمت أشياء جديدة لم أتعلم مثلها في الكلية، فأصبحت أتبنى أفكار الأطفال، وأبني عليها، وهذا ما لم أكن أعمله سابقاً، حيث كنت أعتقد أن المعلمة هي صاحبة الفكرة دوماً. اليوم أيقنت أنه لا توجد نهايات أو أشياء جاهزة، بل إن كل شيء في عملية بناء مستمر.

روضة دار المعرفة - كفر عقب

جانب من أحد تطبيقات المربية كفاية مع أطفال الروضة.